الأرض عرض لأنها رحم الأمة

أ. د. عبد النبي اصطيف

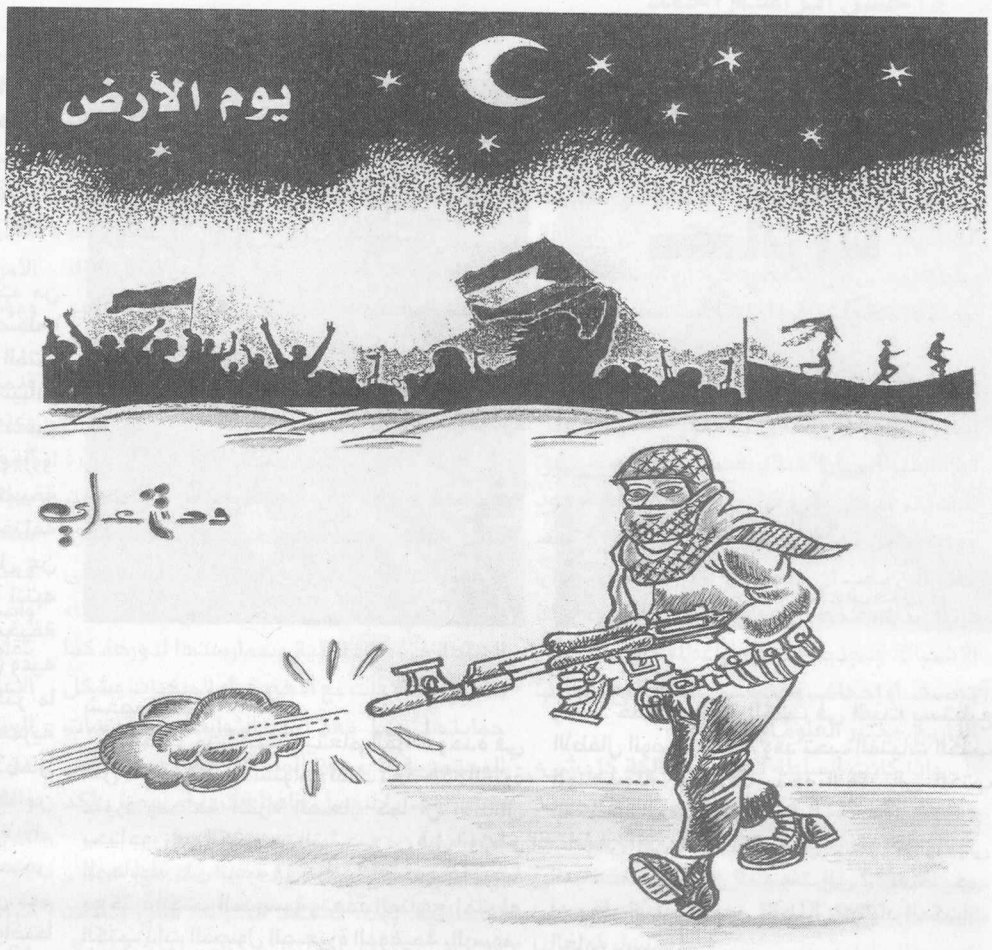

«ألست فقيه لغة؟»، سألني صاحبي وهو يحاورني مضيفاً: «فلتحدثني إذن عن العلاقة بين كلمتي الأرض والعرض»، فأجبته محاولاً احتواء استفزازه المتلاحق: «إنما أنا طالب علم، ومن الطبيعي أن أُعنى بلغتي الأم، اللغة العربية، عنوانِ هويتي، وأن أسعى باستمرار لفهم أسرارها».

قال: دعنا من هذه التسميات وأجبني عن سؤالي دون مداورة. قلت: سأسعى، ولك أن تقتنع بما يفتح الله به علي أو ترفضه، فحسبي السعي وليس عليّ إدراك النجاح.

قال: لا بأس، وهات ما عندك، وكف عن المماطلة، أم أنك تود أن تُدِلَّ بعلمك عليّ، والعلم، فيما تُرَدِّدُ دوماً، يزكو على الإنفاق.

قلت: الأرض رحم الأمة الذي ينتسب إليه أفرادها، مثلما ينتسب أحدنا إلى رحم أمه، فيصل ساكنيه ويغمرهم بمحبته ورحمته وإحسانه، ويحميهم بحرصه عليهم ووقايتهم من كل أذى ومكروه.

قال: المشابهة جميلة، وثقافتي التي ترى في الأسرة نواة للمجتمع العربي، تستوعب ما تنطوي عليه من دلالات، ولكن ما علاقة ذلك بسؤالي؟

قلت: «خُلق الإنسان عجولاً»، وأنت مجرد بشر، والعجلة نقطة ضعف فيك، فدعها، يرحمك الله، وارحمْ محاورك.

قال: لا بأس، سأرحمك، وأصبرُ عليك، منتظراً «جوهرتك» التي تحاول صقلها.

قلت: جُزيت الخيرَ على أي حال.

قال: ها أنت تعود إلى مماطلتك.

قلت: أنت تعلم أن الرحم مقدس في ثقافتنا، فهو مهد الأسرة التي هي نواة مجتمعنا، وليس علي أن أذكِّرك بتعلُّقه بعرش الله وسؤاله أن يقطع من قطع وأن يصل من وصل.

قال: أعلم ذلك، ولكن ما الذي تريد أن تصل إليه؟

قلت: ولأن الرحم مقدس فهو محمي بسلطان الشرع، والقانون، والمجتمع، حتى يبقى نظيفاً، طاهراً، جديراً بهذه المكانة.

قال: ولهذا فإن على طالب الزواج أن يظفر بموافقة سلاطين الشرع والقانون والمجتمع.

قلت: نطقت بالحق، فالشرع يُحلُّ زواجه، والقانون يحميه، والمجتمع يباركه ويقرُّه.

قال: ولهذا يرى الناس فيه شرفهم وعرضهم الذي يُقتلون دونه ويدخلون رحاب الشهادة، ومن ثم الخلود.

قلت: أنا مسرور أنك تبينت الصلة بين الرحم والعرض، وأن الرحم هو حمى صاحبه الذي يذود عنه، ويبذل كل غال ورخيص في الدفاع عنه.

قال: بل وجدتها، وجدتها.

قلت: وما هي التي وجدتها؟

قال: الأرض رحم الأمة، ومن ثم فهي عِرضها، والأرضُ عِرض.

قلت: هذا صحيح، ولو كان ابن جني حياً لحيّاك على اكتشافك هذه الصلة، ولبيّن لك أنها تقوم على ما سماه الاشتقاق الأكبر الذي يجمع ما بين الكلمتين: الأرض والعرض، فضلاً عن تقارب مخرجي الهمزة والعين.

قال: رحم الله ابن جني، بل كل أجدادنا وآبائنا على ما بذلوه من خدمة العربية، عنوان هويتنا، ولكن ما بالنا قد أهملنا متابعتهم في خدمة هذه اللغة التي شرفها الله عز وجل باتخاذها لساناً لبيانه ورسالته، فأنزل القرآن بها، وحفظها به.

قلت: حديث اهتمامنا بلغتنا العربية حديث ذو شجون، فلنرجئه إلى حين نفرغ فيه لرحمنا وأبناء هذا الرحم، نفرغ فيه لوطننا وأبناء هذا الوطن، فهو رحمنا الذي ولدوا فيه. وأبناء الرحم الواحدة، لا يعاملون بعضهم بعضاً إلا بالرحمة والتراحم.

الافتتاحية

د. حسين جمعة

تداعيات في محراب اللغة والواقع العربي

تتميز اللغات بسمات خاصة تتفرد بها، ومنها لغتنا العربية التي تتبارى الأقلام والألسنة في بيان خصائصها من جهات عدّة، ولاسيما حين يأتي الحديث عن اللغة الأم (2/21) ويوم اللغة العربية (3/1). ولمّا رددت النظر في المفردات المستعملة عام (2011م) هالني ما شاع على الألسنة من مفردات تفوح منها رائحة الدم والجراح والقتل، والجرائم والمجازر... والعنف والإرهاب، والتخريب والدمار... والتآمر والخيانة، والفساد والإفساد... هذه المفردات وأمثالها تتنقل في ديار العروبة وألسنة أبنائها... فمن يقرأ المقالات المنشورة هنا أو هناك؛ أو اللقاءات والمحاضرات والندوات على شاشات الفضائيات وغيرها يجد أن اللغة لا تحمل إلينا إلا مزيداً من الحسرات والآهات والأنّات... فالأزمة المركبة المعقدة التي يمر بها أبناء الأمة تؤكد أن الحيرة حاصرت نفوسهم؛ والدهشة عقدت ألسنتهم، والألم كوى قلوبهم... فكيفما تلفت المرء يَمْنة أو يَسْرة رأى نفسه يتخبط في الوصول إلى حلٍّ للمجالدات القاتلة التي زرعت الدروب والشوارع والأزقة والسهول والجبال والوديان والحقول بالمآسي والمصائب... فالنوافذ مغسولة بدم قانٍ يسيل على زجاج محطّم، والأبواب المهمشة مفتوحة على أنّات الثكالى المنكسرة ونشيج براءة الطفولة؛ والشر الوالغ بالثأر الدامي، المنعقد على رغبة جامحة بصديد الدَّم الذي يتفجر من جرائم غلاة الضالعين في المؤامرة على الوطن؛ ومجازر الضالين المضلين الذين تمردوا على الإرهاب والتكفير؛ والخبث والغدر... راحت لغتنا الجميلة تدور في هذا الفلك وقد تلونت بالنفاق والكذب والجنون والهذيان والافتراء وكأنها فقدت ماهيتها النبيلة وأسلوبها السامي؛ وقيم الخير والجمال التي تتزين بها الأفواه... كأن الأمور انقلبت رأساً على عقب، وقد ساعد على هذا كلّه وقَوَّاه تلك السموم التي تنشرها الفضائيات ووسائل الإعلام المعادية، فهي ليل نهار لا تتكلم إلا بفحيح الحقد والكراهية؛ وليس لها حديث إلا الخطف والتعذيب، والتهجير، والفتك وسفك دماء الأبرياء...

لقد شاع في اللغة العربية كل مفردات الألم والحسرة ومشى في عباءتها الموت والحقد في كل مكان بعد أن تحوّلت المحبة واحترام الآخر والعطف عليه إلى بغض وسب وشتم وقذف وطعن، واستبداد... وأخذت العيون تتأذى بمشاهد الجثث المتهتكة لأبناء الوطن من أطفال ونساء وشيوخ وشباب؛ وابتليت البصيرة بالعمى وعشش في البصر كآبة المنظر وهوله...

هكذا استحالت اللغة العربية جرحاً دامياً نازفاً باستمرار الفرقة والتمزيق والتفتيت والتجييش الطائفي والتحريض الإعلامي المسكون بالجنون وهتك براءة الحياة... وراح كل عاقل يتساءل : أي وسط هذا الذي تعيش فيه اللغة العربية وتترعرع لكي تتقدم وتتطور؟! وكيف يمكن لأبنائها أن يتلذذوا بحياتهم وهم يتغذون بلبن الكراهية والعنف والإلغاء والقتل والازدراء والقلق والاضطراب، والخوف، والفوضى والعبث...؟! أي معجم لغوي يعتز به أبناء اللغة - اليوم - وهو يحمل مثل هذه المفردات الصادرة عن القتامة والسآمة وضياع الحكمة والرَّزانة؛ وانتهاك المؤاخاة والتسامح، وفقدان الهوية الجامعة؛ والسقوط في مستنقع التفتيت والتشرذم وتهديم النسيج الجميل للوحدة الوطنية؟ هل أصبحت فصيلة دم أبناء الوطن فصيلة قائمة على الفساد والإفساد والحقد والمشاحنة والتباغض، والانحراف عن جادة الحق والحقيقة والسقوط في مستنقع سفك دماء الحرمات وإهدار كرامة الكرماء وإذلالهم وقهرهم باسم إشاعة الحرية والديمقراطية؟! وهل صارت فصيلة لغتهم متطابقة مع فصيلة دمهم؟

لا مراء لدينا بأن أي لغة هي مخزون الذات والروح، وكهف للثقافة والتراث؛ ووعاء للفكر والعقول... ومن هنا فإننا حيثما تجولنا وجدنا فحيح لغة سائدة لا تنشر إلا السموم الفتاكة التي تفيض بحكايات التخريب والدمار والقتل والاعتداء على الحرية والديمقراطية، والسيادة الوطنية وهتك كرامة الإنسان. ثم إن اللغة التي تعالج الأزمة السورية المعقدة المركبة - اليوم - لا يشم المرء منها إلا نتن المؤامرة الكبرى على سورية وجوداً وحضارة ودولة... إنها اللغة التي سقطت فيما سقط فيه أبناؤها من ظلمة وعتمة مطبقة. فأي لغة هذه التي أخذت تشيع بين ظهرانينا وعلى ألسنتنا؟